دراسة وصفية تحليلية لكتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغِبريني (ت: 714هـ/1314م)

د/- ساعد غلاب
أستاذ محاضر(أ)
المدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة

الملخص:

مما لا يخفى على أهل العلم أن قراءة الكتب من ضروريات العلم، وأنها نصف العلم، ولا يغني كتاب عن كتاب، والقراءة تختلف أنواعها ومن أهمها قراءة الدراسة والفحص والتمعن والتحليل؛ وفي هذا البحث قراءة وصفية وتحليلية لمضامين كتاب لا يُعد تأريخا لأعلام بجاية والوافدين عليها في القرن السابع الهجري فحسب؛ بل هو تأريخ لبجاية إحدى عواصم الحضارة الإسلامية ولغيرها من حواضر العلم وحواضن العلماء التي لها بها صلة التأثر والتأثير كتلمسان. ومن مشمولات البحث: نبذة عن المؤلف أبي العباس الغبريني، مضامين الكتاب، منهج المؤلف فيه، الانتقادات على الكتاب، وخاتمة فيها أهم النتائج التي أسفر عنها البحث، وفيها بعض التوصيات المقترحة.

الكلمات المفتاحية: عنوان الدراية، الغبريني، بجاية؛ العلماء.

- **Abstract :** Reading books is a necessity of science, and reading is half of science, reading varies types, the most important reading: study, examination, reflection and analysis; In this research descriptive and analytical reading of the contents of a book is not a history of the flags of Bejaia and arrivals in the seventh Hidjri century, but is a history of Bejaia one of the capitals Islamic civilization and other metropolises of science and incubators of scientists that have a link to influence and influence such, as Tlemcen.

I Divided the research according to the following plan: About the author Abu Abbas Al-Ghabrini, the contents of the book, the author's approach, criticism of the book, and the conclusion of the most important results of the research, and some of the recommendations proposed.

- **Key words:** Abu Abbas Al-Ghabrini; Bejaia; the capitals Islamic civilization; the seventh Hidjri century.

المقدمة:

إن العلماء ورثة الأنبياء، جعلهم الله تعالى وسائل لحفظ دينه تحصيلا وجمعا وفهما وعملا وتعليما، وذلك عبر القرون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ولا شك أن العلماء يتفاضلون كما يتفاضل الرسل كما قال تعالى: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض...، وأن أفضلهم هم علماء الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، ثم علماء التابعين الذين لقوهم، ثم علماء أتباع التابعين الذين لقوا من لقاهم. كما يدل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)).[متفق عليه]. والحديث من العام الذي أُريد به الخصوص، فيكون معناه: خير الناس ناس قرني من المؤمنين الذين يدخل فيهم العلماء والشهداء والصديقون والصالحون... وغيرهم.

ومن إكرام الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن قيَّض لها مجددين في كل قرن كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها))[1].والمراد بتجديد الدين في الحديث: تصفيته من الشركيات والبدع والخرافات والأحاديث الضعيفة والمكذوبة والمنكرة والباطلة والتي لا أصل لها، وتصحيح المفاهيم الخاطئة والمنحرفة فيه، وتعليم الجاهلين به، ودعوة غير المسلمين إليه بعرضه صافيا من التشويهات التي اختلقها أعداء الإسلام والمسلمين والناس أجمعين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، ومن خلال أيضا رد الشبهات وإبطال التشكيكات حول الإسلام والأجوبة على الاستشكالات وعقد المناظرات مع المجادلين من أهل الكتاب وغيرهم من الملاحدة والعقلانيين والحداثيين والعلمانيين...ومن خلال أيضا الاجتهاد في النوازل والوقائع الجديدة التي تحتاج إلى اجتهاد جماعي أو فردي لمعرفة حكم الله فيها...

وليس المقصود بتجديد الدين في الحديث السابق تفسيرَ الدين بما يتوافق مع أهواء الناس، ويساير واقعهم، فهذا تحريف للدين وتغيير

لحقيقته بشعارات ظاهرها حق وباطنها باطل، كالتطوير والعصرنة والتقدم والرقي والمساواة والتعايش والتقارب... ونتج عن هذا المفهوم الخاطئ للتجديد إيهام الكثير من المسلمين بأنهم على الإسلام المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم في حقيقة الأمر على الإسلام المبدل الذي افتراه هؤلاء المجددون الكاذبون.[2]

والذي يطالع كتب التاريخ والتراجم والطبقات يجد تنوعا في طريقة الحديث عن علماء الإسلام وأعلامه ومشاهيره، ومن هذه الطرق جمع تراجمهم بحسب قرن معين[3]، وهذه طريقة شائعة معروفة، وقد لا يلتزم صاحبها بعد ذلك ببلد معين وإنما يجمع من بلدان شتى كما صنع مثلا الحافظ ابن حجر العسقلاني [ت:852هـ] في كتابه: ((الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)) حيث قال في مقدمة كتابه : ((فهذا تعليق مفيد جمعت فيه تراجم من كان في المائة الثامنة من الهجرة النبوية من ابتداء سنة إحدى وسبعمائة إلى آخر سنة ثمانمائة من الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء وعنيت برواة الحديث النبوي فذكرت من اطلعت على حاله وأشرت إلى بعض مروياته إذ الكثير منهم شيوخ شيوخي وبعضهم أدركته ولم ألقه وبعضهم لقيته ولم أسمع منه وبعضهم سمعت منه ...)).

وقد يلتزم ببلد معين فلا يورد إلا من يعد من أعلامها والواردين عليها كما صنع أبو العباس الغبريني [ت:714هـ]في كتابه: ((عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية)) حيث قال في مقدمته [ص/20]: ((وإني قد رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عُرف من العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة التي نحن في بقية العشر الذي هو خاتمتها ختمها الله بالخيرات، وجعل ما بعدها مبدءا للمسرات، أذكر منهم من اشتهر ذكره، ونبل قدره، وظهرت جلالته، وعرفت مرتبته في العلم ومكانته...))

وهذا الكتاب هو موضوع هذا البحث الذي سيُعنى بدارسة وصفية تحليلية لمضمونه، تتجلى فيه جوانب كثيرة تتعلق بهذا المصدر المهم من مصادر تاريخ بجاية خاصة والمغرب الإسلامي عامة. وحاولت بحسب الاستطاعة أن أضيف شيئا إلى من سبقني بدراسة هذا الكتاب.

1/- نبذة عن حياة المؤلف أبي العباس الغبريني:

لا يوجد فيما هو متاح من المصادر والمراجع التاريخية ما يسعفنا لبسط حياة أبي العباس الغبريني وهذا لقلة المعلومات فيها. وما تركه لنا من ميراث علمي وهو كتابه ((عنوان الدراية)) لا يفي بالغرض؛ لأنه لم يترجم لنفسه ترجمة ذاتية وإنما اكتفى بالترجمة لشيوخه وأعلام القرن السابع الهجري من أهل بجاية والواردين عليها وببرنامجه ثبت مشيخته. ولكن يمكن لمن أعطاه الله تعالى سعة في علم التاريخ وقوة في التحقيق وباعا في الاكتناه المتعلق بالنصوص التاريخية ... أن يستخرج ما يفيد في ترجمة الغبريني، ويستنبط ما يسد الفراغات في جوانب حياته. ويقينا وجزما الباحث ليس منهم.

أ/- اسم أبي العباس الغبريني ونسبه وكنيه:

هو: أحمد بن أحمد[4] بن عبد الله بن محمد بن علي الغبريني، أبو العباس[5]، وقد غلبت عليه شهرته الغبريني، نسبة إلى ((آث غبري)) بالأمازيغية، و((بني غبري)) بالعربية. بطن من قبائل الأمازيغ "البربر" قرب منطقة أعزازقة بالقرب من مدينة بجاية.

ب/- مولد أبي العباس الغبريني ونشأته:

ولد أبو العباس الغبريني سنة 644هـ/1246م.

ونشأ في موطن قبيلته ((بني غبري)) في ضواحي أعزازقة في أعلى وادي سيباو[6] بالقرب من مدينة بحاية، وقيل: في بجاية بالذات.

ج/- مكانة أبي العباس الغبريني العلمية:

إن مجمل ما قيل من عبارات المدح والثناء على الغبريني يدل على مكانته العلمية وشهرته العلية وسأسوق ذلك كله مما وقفت عليه في سياق واحد فهو:

الإمام الفقيه العلامة قاضي القضاة وقاضي الجماعة المحدث الجليل الشهير الفاضل الأديب المؤرخ العالم النحرير المؤلف الشهير الفقيه المطلع الخبير، العلامة المحقق، والفهامة المدقق، الجامع بين الدراية والرواية، قاضي القضاة ببجاية ، كان في حكمه شديدا مهيبا، ذا معرفة بأصول الفقه، وحفظ لفروعه؛ وقيام على النوازل، وتحقيق للمسائل.[7]

ومن خلال مشيخة أبي العباس الغبريني التي ختم بها كتابه ((عنوان الدراية)) وما تفرق فيه من شذرات تشير إلى بعض الجوانب العلمية الخاصة به، ومن خلال بعض ما قاله فيه المؤرخون مع قلته...نخلص إلى النتائج التالية:

- طلبه المبكر للعلم وتقدمه فيه:

وهذا ليس بغريب في مدينة العلم والعلماء بجاية[8] التي قال فيها شيخ الغبريني أبو علي المسيلي[9]: أدركت ببجاية تسعين مفتيا ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من يكون... قال الغبريني: وإذا كان من المفتين تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركه، كان الناس على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد)).[10]

وفي ترجمته لأبي الحسن علي بن محمد الزواوي في عنوان الدراية ص/125 يقول الغبريني:

ولقيته رحمه الله ببلد بني يتورغ بموضع سكناه منها وأنا على **أول السن**، ففرح بي وسر بي واستدناني لنفسه، وأخذ يقرأ ويقول ويمسح على رأسي ويجبذ بأذني إلى أن استوفى ما أراد أن يقرأه، وما شاء الله من ذلك، **وأنا يومئذ في المكتب**، وكان ذلك منه غير سؤال سُئِله وإنما فعله من تلقاء نفسه، فوجدت بركة ذلك وتعرفت يمنه وهو أحد أشياخي المباركين رحمهم الله.

ومما يدل على تقدمه في العلم مبكرا، وحكاه عن نفسه مع أبي زكريا يحي بن زكريا بن محجوبة القرشي السطيفي [ت:677هـ][11]

حيث قال: وكنت **في زمان الشباب** نظمت القصيدة الصوفية الهمزية التي مطلعها:

واحيرة العشاق بالرقباء... حُرموا الوصول لطيبة الوسعاء

وهي نحو أربعين بيتا، فحملتها إليه، وأنشدتها بين يديه، ففرح بها غاية الفرح وجعل يدعو ويقول: بصرك الله لمعنيها وأطلعك على ما فيها، لأن الحال كان حال شبيبة ...

- كثرة المواد العلمية وتنوعها.

الغبريني موسوعة علمية جمع بين علم الدراية والرواية كما سجل ذلك في مشيخته، ولقد درس علوما كثيرة في فنون شتى من فقه وأصوله وحديث ومصطلحه، وعقيدة وتصوف، وعلوم العربية والمنطق...ويلاحظ أن الكتب المتعلقة بالعقيدة والفقه والتفسير وشرح الحديث غالبها مالكية مما يفيد حفاظهم على المرجعية المذهبية التي كان عليها أهل الغرب الإسلامي ألا وهي المذهب المالكي.

كما يلاحظ أن الكتب التي كانت تدرس وتشرح ذات مستوى عال في كل الفنون والعلوم التي ذكرها الغبريني وهذا يلمح إلى المستوى الحضاري الثقافي العلمي في بجاية في القرن السابع الهجري.

- عدم الاقتصار على علماء بجاية فقط:

وهذا صنع من الغبريني عالما جامعا لفهم وأدب وحكمة لا تؤخذ إلا من أفواه الرجال. ويمكن تقسيم شيوخ الغبريني إلى ما يلي:

أ/ شيوخ الغبريني البجائيين، من أشهرهم أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري [ت:675هـ].[12]

ب/ شيوخ الغبريني من قلعة بني حماد، والنسبة إليها: القلعي، ومنهم: أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعي [ت:669هـ].[13]

ج/ شيوخ الغبريني من أهل الأندلس، وهم كثيرون، ومنهم: أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني [ت: نحو699هـ].[14]

د/ شيوخ الغبريني من أهل تونس، ومنهم أبو القاسم بن أبي بكر اليمني، الشهير بابن زيتون [ت: 691هـ].[15]

هـ/ شيوخ الغبريني من الجزائر العاصمة، ومنهم: أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن عتيق الغساني[ت: بعد 680هـ].[16]

و/ شيوخ الغبريني من المغرب الأقصى، ومنهم: أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم السلجلماسي.[17]

- علو همة الغبريني في العلم:

لم يأت تحصيل الغبريني لهذه الموسوعة العلمية من فراغ، وإنما هي ثمرة اجتهاد مستمر وصبر دؤوب وهمة عالية نتمثل فيه قول الإمام يحيى بن أبي كثير: **لا يُنال العلم براحة البدن.**[18]

د/- وفاة أبي العباس الغبريني:

مات الغبريني مقتولا كما ذكر ذلك ابن خلدون[ت:808هـ][19] ، قال: الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله. وابن خلدون هو أعلم بمثل هذه التفاصيل لقربه من عصر الغبريني ولسعة اطلاعه على أخبار السياسة والحكم وخباياهما.وكان ذلك سنة:704هـ عند كثيرين، وقيل: 714هـ عند بعضهم.

2/- مضامين كتاب ((عنوان الدراية)):

أ/- ترتيب الموضوعات الكبرى في كتاب:

- أولا: المقدمة[ص/19-20]: فيها تقسيم العلم بحسب الاصطلاح الصوفي، هو أنه قسمان: الأول: العلم اللدني المباشر بدون واسطة العلماء وإنما يكون بالمعرفة، والقسم الثاني من العلم هو الذي يؤخذ بواسطة الرجال بالسند المتصل.

وفيها مناهج العلماء في التأليف في تراجم الرجال.

وفيها أهمية إخلاص النية لله في التأليف.

وفيها الصفة الجامعة للأعلام الذين سيرد ذكرهم في كتابه ((عنوان الدراية)).

وفيها شرطه في إيراد هؤلاء الأعلام وهو أن يكونوا من علماء المائة السابعة ومن أهل بجاية أو الواردين عليها.

وفيها ما استثنى من شرطه بعض الأعلام وذكر عذره في ذلك.

- ثانيا: بدأ بالترجمة لمجموعة من العلماء استثناهم من شرطه في المقدمة [ص/21-55]، وعددهم ستة، منهم: أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلس [ت:594هـ][20] ، وأبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي [ت: نحو580هـ][21]، وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي[ت:581هـ]. قال بعد أن ذكر هؤلاء الستة ص/55: **وها أنا أذكر مشيختي وأعلام إفادتي رضي الله عنهم.**

- ثالثا: تراجم مشيخته وأعلام إفادته [ص/57-126] وعددهم عشرون.

- **رابعا:** باقي تراجم علماء المائة السابعة من أهل بجاية والواردين عليها[ص/126-351]. قال الغبريني ص/126: **وهذا أوان ذكر من بقي من العلماء الذين اشترطت في هذا الكتاب ذكرهم، رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين. وهم ينقسمون إلى قسمين:**

- **القسم الأول: من يعدون من شيوخه.**

- **القسم الثاني: من لا يعدون من شيوخه** مع كونهم على شرط الكتاب أي من أعلام المائة السابعة من أهل بجاية والواردين عليها، ومن أسباب عدم كونهم من شيوخه تقدم وفاتهم حيث توفوا قبل أن يولد الغبريني كما هو حال أبي محمد عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي [ت: 636هـ][22] أو قبل أن يكون الغبريني بلغ سن الأخذ عنهم كأبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي الشهير بابن الأبار [ت:658هـ][23] حيث كان سن الغبريني أربع عشرة سنة. أو أن المترجم له لم يستقر في بجاية كحال أبي الحسن علي بن مومن بن محمد الحضرمي المعروف بابن عصفور[ت:669هـ][24] فكان هذا مانعا من أن يأخذ عنه الغبريني. وقد يكون المترجم له من أقرانه ومعاصريه فتكون المعاصرة مانعا كما قالوا: المعاصرة حرمان، كما هو حال أبي يوسف يعقوب بن يوسف الزواوي المنجلاتي [ت:690هـ] [25] قال الغبريني ص/265: من أصحابنا الذين جمعنا معهم عصر واحد.

وقد يورد من الأعلام من هو شيخ شيخه كما في ترجمة أبي زكرياء يحي بن أبي الحسن اللفتني الأندلسي[26]، قال الغبريني: رحل إلى بجاية واستوطنها وقرأ بها وأسمع، وهو أحد من أخذ عنه شيخنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبادة[27] رحمه الله رواية وتفقها ودراية.

خامسا: برنامج مشيخة الغبريني[ص355-401] وهو الثبت الذي فيه بيان العلوم التي أخذها والكتب التي قرأها وسمع شرحها بطرق التحمل المختلفة من رواية وإجازة وقراءة وسماع. عن نخبة من العلماء والشيوخ من أهل بجاية وغيرها. قال الغبريني ص/355: وإني أردت لم أتيت على ذكر ما شرطت ذكره من علماء هذه المائة السابعة ومن انضاف إليهم فيمن كان في آخر المائة السادسة نفع الله بهم وجعله خالصا لوجهه الكريم، رأيت أن أذكر بعد ذلك طريق استفادتي مما استفدته، ووجه تلقي ما تلقيته من العلم ورويته، لينتفع بذلك من له أرب، وليجده منظوما من له عليه بحث وطلب.

ثم قسم برنامجه إلى علم الدراية وعلم الرواية فذكر علوم وكتب وشيوخ كل علم مفصلا طريقة أخذه وكيفية تحصيله.

قال محمد عبد الحي الكتاني: له برنامج ختم به كتابه " عنوان الدراية في عيون من كان من العلماء في المائة السابعة ببجاية " في نحو كراسة، وهو جامع لأسانيد غالب الكتب المتداولة في عصره ومصره.[28]

ب/- من فوائد التراجم لأعلام القرن السابع الهجري ببجاية :

إن الذي يقرأ التراجم الواردة في كتاب ((عنوان الدراية)) قراءة فهم يتبين له فائدتها ويظهر له أهميتها ليس من جانب واحد بل من جوانب متعدد، منها:

1/- تعريفهم نسبا وميلادا ونشأة وتعلما ومنزلة وفضلا وشيوخا وتلاميذ وتآليف ورحلة ووفاة.

2/- ذكر النشاط العلمي في بجاية وما حولها من حواضر العلم وحواضن العلماء من تونس والقيروان وبونة وقسنطينة وجزائر بني مزغنة وتلمسان ومراكش وفاس وبلاد الأندلس قبل سقوط غرناطة آخر معاقلها. ويتمثل النشاط العلمي في الرحلات على اختلاف أنواعها، والفتيا في النوازل والمستجدات، والمناظرات والمذاكرات، وشرح الكتب في مختلف العلوم، والتأليف بحسب دوافعه، وإنشاء المكتبات العامرة بالنوادر والمخطوطات.

3/- جانب من النشاط الأدبي من خلال الشعر والشعراء، والفصحاء والبلغاء، والخطب والخطباء، والمراسلات والمكاتبات.

4/- جانب من النشاط السياسي الذي مزج بين نهاية الدولة الموحدية وقيام الدولة الحفصية التي احتفت ببجاية إلى حد أن اتخذتها العاصمة الثانية لها بعد تونس.

5/- إطلالة على الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد، وأخلاق وآداب، وحال المرأة.

6/- إطلالة على الحياة الاقتصادية والتجارية والمهن والحرف.

7/- إطلالة على الحياة الدينية من عقيدة وعبادة وسلوك.

3/- <u>منهج الغبريني في كتابه ((عنوان الدراية))</u>:

يمكن تحديد معالم منهج الغبريني في كتابه ((عنوان الدراية)) في النقاط التالية:

1/ نهج المنهج التاريخي الأدبي الوعظي في غالبه. فكتابه بغية المؤرخين، وطِلبة الأدباء، ووجهة الوعاظ والمذكرين.

2/ التزم السجع في تعبيره في أغلب مواضع الكتاب. وهذا راجع إلى الميل الأدبي للغبريني، كعادة الكثير من المؤلفين الذين جمعوا بين علم الأدب والعلوم الأخرى.

3/ اعتمد في جمع مادة البحث على الرواية والسماع والمشاهدة، كما اعتمد على الوثائق باعتباره قاضي قضاة البلد، كما اعتمد على المنامات ... ومن الملفت للانتباه أنه لا يشير إلى كتب التاريخ والتراجم لتي أخذ منها، كما لم يذكر في برنامجه كتب التاريخ والتراجم التي رواها وقرأها وسمعها وأُجيز فيها!

ولم يصرح بمرجع رجع إليه في تدوين كتابه إلا ما جاء في ص/50: حيث قال: ووقفت على مثل هذا المعنى في ملخص من ((المنتخب المقرب في ذكر بعض صلحاء المغرب)) ...وبالرجوع إلى المصادر والمراجع وجدت هذا الكتاب لأبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي المعروف بابن الزيات[ت:617ه] صاحب كتاب: ((التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي)).[29]

وكنت قد لاحظت أن الغبريني في منهجه في موضوع الكرامات والخوارق ... كمنهج التادلي في ((التشوف))، فقلت في نفسي: لا يبعد أن يكون الغبريني طالع كتاب ((التشوف))؛ لأن مؤلفه من وفيات القرن السابع الهجري، ولكن قد يكون هذا الاحتمال بعيدا باعتبار أن الغبريني لم يذكره في جملة كتب التصوف والتذكير من ((مشيخته)). ثم انتقلت من الشك إلى اليقين أن الغبريني رجع إلى ((التشوف)) وإن لم يصرح بذلك؛ لأن المنهجية في عرض التراجم

خاصة فيما يتعلق بالتركيز على الكرامات والمنامات والقبوريات... واحدة والذي أكد لي ذلك هو تصريحه بالرجوع إلى ((المنتخب المقرب)) الذي هو للتادلي كما ذكر ذلك: شجرة النور الزكية 265/1، نيل الابتهاج بتطريز الديباج 626/1.

4/ ركّز على ذكر كرامات الأولياء وخوارقهم ومناماتهم، وجاء بمقدار هائل من ذلك، وعلق عليها تعليق المصدق بها والمقر لها مع ما فيها من المخالفات والبدع والضلالات.[30]

5/ نزوعه إلى أسلوب الإعجاب فيما يحكيه من قصص.[31]

6/ استعماله للمصطلحات الصوفية مما يدل على تأثره بهم. خاصة إذا علمنا أن بعض الباحثين في تاريخ التصوف يعتبر القرن السادس الهجري والسابع هما القرنان اللذان بلغ فيها التصوف أعلى مستواه الفكري والأخلاقي، كما اعتبر القرن السابع الحد الفاصل بين التصوف النقي الخالي من الشعوذة والخرافات وبداية نشاط الطرقية وبين التصوف الذي يحتوي على ضد ذلك.[32]
من هذه المصطلحات: العلم اللدني. الكشف والمكاشفة والكشوفات، الواصل القطب، السياحة في الأرض، فقيه النفس.[33]

7/ تأثره بالقبورية من خلال دعوته إلى التبرك بالقبور والأضرحة والدعاء عندها، وإخباره بمخالفات وبدع تتعلق بالقبور أقرها واستحسنها.[34]

8/ نقده لكثير من الأعلام والمؤلفات والعلوم والحوادث.
أ/- من ذلك في ترجمته لأبي القاسم محمد بن أحمد الأموي[ت:674هـ] حيث قال: وكان رحمه الله إذا سئل عن المسألة كثيرا ما يتوقف عن الجواب إلا بعد نظر، ورأيت غيره من الأطباء ممن يقصر عن معرفته إذا سئل ساعة ما يسأل يجيب، وربما اعتقد هذا المسرع في الجواب أو غيره من الأغبياء أن سرعة المسرع هي لمعرفته وأن إبطاء المبطئ هو لتقصيره، وهذا هو اعتقاد الأغبياء في أمثال هذا، وإنما الإبطاء في الجواب دليل العلم؛ لأنه بيَّن السائل

للطبيب العرض العارض للعليل، ولا بد أن يقع له النظر في الأسباب وتمييزها والحدس على السبب الفاعل إن تعارضت وينظر أنسب الأدوية وحينئذ يقع الجواب، وهكذا حال حذاق الأطباء، وأما عوامهم ومن يعد منهم في أعداد القوابل، فعندما يسأل يجيب بغير علم، ولقد رأيت بعض من كان مبخرتا في الطب يعالج المرضى فتخفى عليه الشكاية فيعالجها بالحار تارة وبالبارد تارة أخرى، بحيث ينظر فإن أنجح فيها أحدهما استمر عليه، ويحرم على الإنسان أن يمكن نفسه ممن حاله مثل هذه الحال ويحرم على من هذه صفته أن يطب، وهذه الصناعة هي أشد الصنائع ضياعا في بلادنا لأنه يتعرضها الغث والسمين، ولا يقع بينهما التمييز إلا عند القليل من الناس.[35]

ب/- من ذلك لما ترجم لشيخه أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن يخلف الجزائري قال: له علم بالعربية، واللغة والنحو والأدب، وكان يُقرأ عليه الفقه، وكانت بضاعته فيه مزجاة...[36]

ج/- ومن ذلك لما ذكر برنامج أبي عبد الله محمد بن علي الصنهاجي [ت:628هـ][37]قال: ورأيت له برنامجا ذكر فيه شيوخه ومقروءاته من الكتب يشتمل على مائتين كتابا واثنين وعشرين كتابا، كلها مسندة إلى مؤلفيها مذكورة السند فيها، ومل رأيت برنامجا أحسن منه؛ لأن أكثر البرنامجات تقع فيها الإحالات إما في الكل أو في البعض، إلا هذا البرنامج، فإنه ما أحال فيه على كتاب أصلا.[38]

د/- وفي ترجمته لأبي الربيع سليمان الأندلسي المعروف بكثير[ت:634هـ][39] قال: وكان لسان نقد على المؤلفين والمصنفين والمتكلمين، ومن جملة نقوده ما كان يقوله على كتاب ((الإحياء)) لأبي حامد الغزالي يقول: ومتى ماتت العلوم حتى تُحيي علوم الدين؟ ما زالت حية ولا تزال.[40]

هـ/- كما انتقد أبا الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي [ت: 633هـ][41] استعماله حوشي اللغة، حيث قال: وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة، حتى صار حوشي اللغة عنده مستعملا غالبا عليه، ولا يحفظ الإنسان من اللغة حوشيها إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها، وكان قصده والله أعلم أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره من الناس، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا

طريق المعرب وانفردوا بالطريق الآخر؛ لأنهم انفردوا به واشتهروا فيه، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس، وكذا الشيخ أبو الخطاب ابن دحية الكلبي[42].

و/- وفي ترجمته لأبي المطرف ابن عميرة المخزومي [ت:658هـ][43] قال: وكان الطلبة مدة كونه ببجاية يقرؤون عليه تنقيحات[44] السهروردي وهي من مغلقات أصول الفقه عند طائفة ممن لم يمارس علم الأصول ولا يتعرض لإقرائها إلا من له ذهن ثاقب، وكذلك كان قبل ظهور ما اخترعه المتأخرون من الطرق المقفلة والقوانين المغلقة في أصول الفقه.

9/ يعلق بتعليقات مفيدة مع قلتها:

أ/- منها ما ذكره في ترجمته لشيخه أبي عبد الله السجلماسي حيث قال عنه: وكان قويا في علم التوحيد، وكان يرى أن التوصل إلى الحقائق إنما هو بالتوحيد، والترقي إلى أعلى المراقي إنما هو بالتوحيد.

ثم قال معلقا: ولا جرم أن هذا هو الأمر السديد؛ لأن أول الأمر إنما هو التوحيد، وآخره إنما هو التوحيد، ومصداق ذلك قوله عليه السلام: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله))، وقوله عليه السلام: ((أفضل ما قلته أنا والنبيئون من قبلي لا إله إلا الله)). ومنتهى الأمر قوله عليه السلام: ((من مات وهو يعلم لا إله إلا الله دخل الجنة))، فالتوحيد عصمة في الدنيا وعصمة في الآخرة، وهو مطلوب ابتداء وانتهاء وما بينهما[45].

ب/- ومن ذلك تعليقه على طريقة أبي زكريا الزواوي [ت:611هـ][46] الذي كان الغالب عنه في دروسه الخوف، ما يمر بمجلسه إلا ذكر النار والأغلال والسعير، وتكاد تفيض قلوب الحاضرين في مجلسه، هذا هو حاله دائما.

ثم قال معلقا: وهذه الطريق هي أحسن الطريق في الدعاء إلى الله تعالى، إذ جبل الله الخلق على أنهم لا ينفعلون غالبا إلا بالخوف، ولأجل هذا كان أكثر الشريعة تخويفا.

وما زال رضي الله عنه مستمرا على هذا الحال إلى يوم وفاته، يبسط أمل الناس ورجاءهم في رحمة الله وفي سعة مغفرته، ومناهم بما عنده من كثرة الثواب، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ... وهذا طريق حسن؛ لأنه لم يبق عند لقاء الله إلا الطمع في رحمته والرغبة فيما عنده؛ لأن الخوف فائدته إنما هي الحض على العمل، وحين الموت انقطع العمل، ولم يبق إلا قوة الأمل لتلقى الله طيبة نفسه، فيحب لقاء الله فيحب الله لقاءه، حسبما اقتضاه الحديث.[47]

10/ لم يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية [فيه 14 آية فقط]، والأحاديث النبوية [فيه 11أحاديث فقط].[48]

12/ كثير الإيراد للشعر[49] بسبب كونه أديبا، ولكنه نص على أنه لا يقصد الاستكثار وإنما يريد أن يأتي من الشعر ما يستدل به على أن المرء من العلماء. قال في ص/351 من عنوان الدراية: وليس المقصود في هذا الأنموذج الاستكثار من كَثب الكُتّاب وشعر الشعراء، وإنما القصد الإيذان والإعلام بما يستدل به على أن المرء العلماء وفي أعداد الفضلاء.

13/ يترحم على العلماء، ولا يورد لبعض المترجَمين ما ينقص قدرهم أو يحط من منزلتهم. ففي ترجمته لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري المشتهر بالأصولي [ت:612هـ] [50] بعد ذكر حادثة وقعت بين المترجم له ووالي بجاية: ... ولولا صورة استطراد الكلام ما ذكرت هذا؛ لأني ما زلت أنقد على من يذكر فضل أهل العلم ثم يغمز في شأنهم ويشير إلى القادح فيهم، فلا أريد أن أذكر إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت.

4/- أهم الانتقادات على كتاب ((عنوان الدراية)):

من خلال قراءتي المتواضعة لهذا المصدر القيم لأعلام بجاية في القرن السابع الهجري يمكن أن أسجل الانتقادات التالية وهي لا تنقص من قيمة الكتاب وإنما هو نقصان لا ينجو منه كتاب إلا كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

1/ كان ينبغي أن يقتصر الغبريني على أعلام القرن السابع الهجري فقط من أهل بجاية والواردين عليها، وهذا حتى لا يقع تشويش على القارئ.

2/ من خلال عنوان الكتاب ((... فيمن عرف من العلماء ...)) نأخذ أن المترجم لهم علماء كلهم، ولكن نجد من ترجم لهم ليسوا كذلك، كأبي عبد الله العربي الذي نقل عن ابن عربي أنه قال فيه: هو من الأميين، كشيبان الراعي **!!!** ومع هذا ينقل عنه أشياء لا تليق بأولياء الله الصالحين حقا وصدقا، ويختم ترجمته بقوله: ولا أعلم له وقت ولادة ولا وفاة ولا نسبا سوى شهرة اسمه، وما عرف من رسمه.[51]
قال الباحث: وهذه طريقة غلاة الصوفية الذين يجعلون من أولياء الله الصاحين المجانين الذين رفع عنهم القلم والمصابين بمس الجن حيث يجرون على أيديهم بعض الخوارق التي هي من قدرة الجن كالطيران في الهواء أو المشي فوق الماء فيعتبر من لا علم بحقيقة ذلك من الكرامات لهؤلاء المرضى ويترتب على ذلك أن يعاملوهم معاملة أهل الجاهلية للبحيرة والسائبة والوصيلة والحام.
وهذا راجع إلى عدم التفريق بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق شياطين الجن والإنس.

3/ كتاب ((عنوان الدراية)) ترويج للقبورية التي تُسوِّغ الزيارة البدعية والشركية لقبور وأضرحة الأولياء والعلماء والصلحاء وذلك بالتبرك بالدعاء عندها والتماس الإجابة بمجاورتها والاستشفاء بتربتها وقراءة كتب المؤلف عند قبره... وسبقت الإحالة على مواضع ذلك من الكتاب.
والمشروع مع القبور هو الزيارة الشرعية التي دلت عليها أحاديث كثيرة ثابتة ينتفع فيها الزائر بالاتعاظ وتذكر الموت والآخرة، وينتفع بها المزور بالدعاء له بالمغفرة والرحمة.

4/ اعتماده على المنامات حيث جعلها مصدرا من مصادر التراجم، بل جعلها من مراجع التفسير كما في ترجمته لأبي مدين في تفسير العين التي تغرب فيها الشمس في قصة ذي القرنين من سورة [الكهف: 86]. ومن المتقرر في أصول التفسير أن القرآن الكريم يفسر بالقرآن الكريم، ثم بالسنة النبوية، ثم بأقوال الصحابة رضي الله عنهم، ثم بأقوال التابعين وأتباعهم، ولا مجال للرؤى والمنامات في مصادر التفسير.

5/ لم يستوعب في ذكر أعلام بجاية والواردين عليها في القرن السابع الهجري، وإنما ركز على الأولياء والصالحين خاصة تأثرا بصوفيته وبطريقة التاودي في ((المنتخب المقرب)) و((التشوف)).

خاتمة:

لا أستطيع أن أتوسع أكثر لما للبحث من خصوصية التقيد بعدد الصفحات، وأسجل في هذه الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها مع ذكر توصيات.

أ/- أهم نتائج البحث:

1/ أبو العباس الغبريني عالم موسوعي جامع بين علوم الرواية والدراية.

2/ أضفت معلومات إلى ترجمة الغبريني أحسب أنني وُفقت فيها.

3/ جَلّيت جوانب كثيرة تتعلق بكتاب عنوان الدراية أحسب أنها أيضا إضافة إلى دراسة الكتاب خاصة ما يتعلق بمنهج المؤلف في كتابه، وما يرد عليه من انتقادات.

ب/- التوصيات:

تتمثل أهم التوصيات فيما يلي:

1/ إعادة تحقيق كتاب عنوان الدراية فأحسن تحقيق له إلى فيما أحسب هو تحقيق عادل نويهض.

2/ البحث عن معلومات إضافية لترجمة الغبريني من خلال المخطوطات المغاربية التي اكتشفت حديثا والمطبوعات التي طبعت مؤخرا.

- حواشي البحث:

[1]/ رواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.
[2]/ للوقوف على دراسة مهمة في حقيقة التجديد في الدين راجع كتاب: مفهوم التجديد في الدين، بسطامي محمد سعيد، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط/2، 2012/1433.
[3]/ نماذج للتأليف في تراجم الأعلام على القرون:
أ/ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. لأبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي[ت:902هـ].
ب/ النور السافر عن أخبار القرن العاشر. لمحي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس [ت: 1038هـ].
ت/ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. لمحمد أمين بن فضل الله المحبي[ت:1111هـ].
ث/سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. لمحمد خليل بن علي الحسيني [ت:1206هـ].
ج/ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. لعبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي [ت:1335هـ].
ح/ تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري. ليونس الشيخ إبراهيم السامرائي.
خ/ موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر في العالم العربي والإسلامي [من 1301-1417هـ]. لإبراهيم بن عبد الله الحازمي.
[4]/ أكثر من ترجم للغبريني ذكر أنه: أحمد بن أحمد... باستثناء ابن قنفذ القسنطيني في ((الوفيات))[ص/338]، و((لقط الفرائد)) [مخطوط] لابن القاضي المكناسي فهو فيهما أحمد بن محمد. قال الباحث: ولا شك في صحة ما عليه الأكثرية، ومما يؤكد على ذلك أن أبا العباس الغبريني له ولدان عالمان كلاهما اسمه: أحمد، فلعله صنع ذلك على طريقة من يسمي على اسم أبيه واسم جده.
ابنه الأول: قاضي الجماعة أبو القاسم أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثاً الغبريني: فقيه تونس وعالمها وإمامها وخطيبها بجامع الزيتونة ووالده مؤلف عنوان الدراية كان علامة فاضلاً عالماً عاملاً. ت: 772هـ. كما في شجرة النور 323/3.
ابنه الثاني: أبو سعيد أحمد: كان من أعلام العلماء الفضلاء محدثاً فقيهاً لم أقف على وفاته. كما في شجرة النور 323/3.

[5]/ **تنبيه:** هناك مقال للدكتورة زينب قوني جامعة حمة لخضر الوادي في **مجلة الأثر** العدد27/ديسمبر2016 عنوانه: أبو الحسن (!) الغبريني وكتابه ((عنوان الدراية)).ولا يعرف للغبريني كنية أخرى لا تنوعا ولا اختلافا غير كنيته التي اتفق عليها من ترجم له وهي: أبو العباس. فلعل ما جاء في المقال خطأ مطبعي، أو سهو من الدكتورة فإنها لما بدأت المقال بترجمة الغبريني ذكرت أن كنيته أبو العباس.

[6]/ هناك برج سيباو وهو أحد بروج مملكة كوكو – نسبة إلى جبل كوكو أحد جبال جرجرة بتيزي وزو شرق الجزائر العاصمة- أو مملكة عرش القاضي، والقاضي هو أبو العباس أحمد الغبريني مؤسس المملكة سنة 1511م والذي قتل غدرا على يد أحد أتباعه سنة 1527م، أي بعد وفاة الغبريني صاحب ((عنوان الدراية)) بحوالي 196سنة، وهما يتوافقان في الاسم والكنية والنسبة والمهنة والظاهر أنه أحد أحفاد صاحب ((عنوان الدراية)) وخاصة وأنهم من أصل واحد وهم الأمازيغ ومن مقاطعة أمازيغية واحدة. انظر: "كوكو" مملكة أمازيغية بالجزائر تحدت العثمانيين قبل 500 عام. يونس بورنان. العين الإخبارية. 2018/12/01 .www.alain.com].

[7]/ مجموع من المراجع التالية: تاريخ قضاة الأندلس ص/132. الديباج المذهب 252/1. الوفيات لابن قنفذ ص/338. فهرس الفهارس للكتاني 883/2. الأعلام للزِّركلي 90/1. معجم المؤلفين عمر رضا كالة 151/1. شجرة النور الزكية ابن مخلوف 308/1. مقدمة محمد بن أبي شنب على عنوان الدراية الذي حققه في أول طبعة للكتاب سنة 1910م.

[8]/ تعد بجاية واحدة من أهم الحواضر الثقافية والفكرية بمنطقة المغرب الأوسط إذ كانت عامرة بالفقهاء والأدباء ،كما تعد من أكبر مراكز العلوم الإسلامية واللغوية على غرار ما يوجد منها بالمشرق والأندلس فقد كان يهاجر إليها باستمرار رجال من أولي العلم والأدب للاستزادة من علوم الدين والحديث واللغة، وقد استفادت بلاد المغرب من أبنائها الأبرار، ومن رجال العلم والأدب الذين دخلوا إليها قادمين من المشرق وصقلية ومدن الأندلس ،وقاموا بتدريس العلوم الإسلامية والعربية بها ، فنشأت جراء ذلك العديد من الآراء الفكرية، التي أسهمت في نشر الثقافة و توسيع رقعتي العلم و المعرفة بها، منذ أن خلفت العاصمة القديمة للدولة الحمادية " القلعة." [الشعر في حاضرة بجاية الحمادية حتى نهاية القرن السابع الهجري. مذكرة ماجستير في الأدب العربي القديم. وداد حلاوي. جامعة الحاج لخضر باتنة. 1425/1426-2004/2005. ص/20].

[9]/ أبو علي حسن بن علي المسيلي. ت: نحو 580هـ، ترجم له الغبريني في الترجمة رقم:2 من عنوان الدراية.

[10]/ عنوان الدراية ص/55،36 .

[11]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/103.

[12]/ ترجم له الغبريني في عموان الدراية ص/57 فما بعد.

[13]/ / له الغبريني في عموان الدراية ص/65 فما بعد.
[14]/ ترجم له الغبريني في عموان الدراية ص/79.
[15]/ ترجم له الغبريني في عموان الدراية ص/97 وقال: لقيته ببجاية وتونس.
[16]/ ترجم له الغبريني في عموان الدراية ص/111 فما بعد.
[17]/ ترجم له الغبريني في عموان الدراية ص/123.
[18]/ رواه الحافظ بن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله 385/1، ورواه غيره.
[19]/ تاريخ ابن خلدون (6/ 462(ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر.المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: 808هـ).المحقق: خليل شحادة. الناشر: دار الفكر، بيروت الطبعة: الثانية، 1408هـ-1988م.
[20]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/22 فما بعد.
[21]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/33.
[22]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/325.
[23]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/309.
[24]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/317.
[25]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/265.
[26]/ ترجم له في ص/260.
[27]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/65.
[28]/ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. المحقق: إحسان عباس. الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت 883/2.
[29]/ تحقيق أحمد التوفيق. ط/2. 1997م. منشورات كلية الآداب بالرباط.
[30]/ عنوان الدراية الصفحات: 26، 27، 28، 34، 102، 137، 149، 174، 178، 210، 295.
[31]/ عنوان الدراية ص/45، 140.
[32]/ انظر: التصوف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. نشأته، تياراته، دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي. الطاهر بونابي. دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة. الجزائر. بدون تاريخ. ص/9.
[33]/ عنوان الدراسة الصفحات: 205،191،182،181،30،22،19، 235.ولمعرفة معاني هذه المصطلحات عن الصوفية راجع: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي. رفيق العجم. مكتبة لبنان ناشرون.ط/1. 1999.
[34]/ عنوان الدراية الصفحات: 28، 35، 125، 189.
[35]/ عنوان الدراية ص/76.
[36]/ عنوان الدراية ص/77.
[37]/ ترجم له الغبريني في عنوان الدراية ص/218.

[38]/ عنوان الدراية ص/219.
[39]/ عنوان الدراية ص/279.
[40]/ عنوان الدراية ص/280.
[41]/ ترجم له في عنوان الدراية ص/269.
[42]/ عنوان الدراية ص/270.
[43]/ عنوان الدراية ص/298.
[44]/ في عنوان الدراية ص/301 تلحيقات، وما أثبته من ((هدية العارفين)) للبغدادي قال : التنقيحات - في أصول الفقه.
لشهاب الدين يحيى بن حسن ابن أميرك السهروردي المقتول بحلب سنة 587 سبع وثمانين وخمسمائة. [330/3].
[45]/ عنوان الدراية ص/123
[46]/ عنوان الدراية ص/127.
[47]/ عنوان الدراية ص/128.
[48]/ راجع فهرس الآيات والأحاديث من عنوان الدراية بتحقيق عادل نويهض. ص/450-451.
[49]/ راجع فهرس القوافي من عنوان الدراية بتحقيق عادل نويهض ص/451-452.
[50]/ راجع عنوان الدراية ص/208 فما بعد.
[51]/ عنوان الدراية ص/51.